Aziz AL-ASSA¹

**THE MONASTERY OF MAR SABA -SOUTH EAST OF
JERUSALEM: THE AVANT GARDE OF THE JERUSALEMITE
MONASTRIES**

<http://dx.doi.org/10.47832/2717-8293.8-3.24>

Research Article

Received:

06/10/2021

Accepted:

22/10/2021

Published:

01/11/2021

This article has been
scanned by **iThenticate**
No plagiarism detected

Copyright © Published
by Rimak Journal,
www.rimakjournal.com

Rimar Academy, Fatih,
Istanbul, 34093 Turkey
All rights reserved

Abstract:

This scientific paper aims to identify an important monastery that was established in the fifth century AD southeast of Jerusalem i.e. two centuries before the arrival of Islam. That monastery is:

Mar Saba Monastery: After Saint Saba (439-532 A.D.) who lived an ascetic life in a cave 15 kilometers southeast of Jerusalem over a valley that extends from the foothill of Mount Al-Tur in Jerusalem and runs into the Dead Sea. The Valley is mentioned in the Bible as "Kidron" while others call it "Yehushevat" or the Valley of Tears (People call it now Wadi Al-Nar or the Inferno Valley). Saint Saba was followed by other monks who lived in the surrounding caves. In 483 A.D. Saint Saba and his followers began to build a monastery in the place which became of its proximity to Jerusalem. It hosted a large number of monks from different denominations, and contained a distinguished library throughout history.

That monastery became a place of pilgrimages for travelers, researchers, and Jerusalem visitors over a period of sixteen centuries. It was also known for Christian pilgrims, since it hosted thousands of monks.

This study also aims to provide sufficient data about Saint Saba and his monastery. It also discusses how the monastery was developed throughout history, its pertinence to Jerusalem, and the role it played in attracting tourists and travelers to the Holy Land as well as in the cultural development in Jerusalem and the vicinity.

Key words: Jerusalem (Bayt al-maqdes), Monastery, Mar Saba.

¹ Dr. , Al-Quds University, Palestine, aziz.alassa@yahoo.com, <https://orcid.org/0000-0003-3171-7066>

-دير مار سابا - جنوب شرق بيت المقدس طليلة الأديرة المقدسية

عزیز محمود عصا²

الملخص

تهدف هذه الورقة العلمية إلى التعرف إلى دير مهم أقيم في القرن الخامس الميلادي، جنوب شرق القدس؛ أي قبل مجيء الإسلام بقرنين، هو: دير مار سابا؛ نسبة إلى القديس سابا (439م-532م) الذي مكث يتعبّد في كهف على بُعد (15) كيلومتراً جنوب شرق بيت المقدس فوق وادي يبدأ من أسفل جبل الطور في القدس، ويصبّ في البحر الميت، حيث هو مذكور في الكتاب المقدس باسم "وادي قدرون"، وهناك من أطلق عليه وادي يهوشافاط، أو وادي الدموع (ويطلق عليه حالياً وادي النار أو وادي جهنم). تبع القديس سابا رهبان آخرون انتشروا في الكهوف المحيطة، وفي عام (483م) شرع القديس سابا ومن معه من الرهبان ببناء دير في المكان، حيث أصبح له شأن كبير في حياة المسيحيين؛ لارتباطه مع القدس، وإقامة أعداد كبيرة من الرهبان فيه من مختلف الطوائف، ولاحتوائه مكتبة، قل نظيرها عبر العصور.

أصبح هذا الدير محجاً للرحالة والباحثين، وزوّار بيت المقدس، على مدى ستة عشر قرناً. كما اشتهر لدى الحجاج المسيحيين، لوجود آلاف الرهبان الذين عاشوا فيه. وتسعى هذه الدراسة إلى توفير المعلومات الكافية عن القديس سابا وديره. وتطور هذا الدير وأحواله، عبر التاريخ، وارتباطه المباشر ببيت المقدس، ودوره في استقطاب الزوّار والرحالة والسائح، وفي التطور الثقافي والمعرفي في بيت المقدس بشكل عام. الكلمات المفتاحية: القدس (بيت المقدس)، دير، مار سابا.

المقدمة:

أشارت المصادر والمراجع إلى أنه كان في بيت المقدس، عند الفتح الإسلامي (15هـ/638م) نحو (20) كنيسة وديرًا منها: كنيسة القيامة، وكنيسة الجسمانية، وكنيسة المصلبية، وكنيسة القديسة مريم، ودير العذراء، وبطريكية الروم الأرثوذكس وديرها، ودير مار إلياس، ودير أبينا إبراهيم، وكنيسة ستينا مريم، ودير مار سابا، ودير القديس ثيودوسيوس، وكنيسة القديسة حنة، وكنيسة القديسة صوفيا، ودير البنات، وكنيسة الخضر (الحنيلي ج2: 1973، 51، 170؛ شامية 2010؛ داود 2010).

إلا أن التاريخ لم يترك إلّا القليل من أخبار النساك الأوائل - قبل مجيء الإسلام - لكن اشتهر كثير منهم في القرون الرابع-السادس، من أمثال: القديس جيروم، والقديس أفثيموس، والقديس سابا، والقديس ثيودوسيوس (صاحب دير ابن عبيد)، والقديس خريطون، فكانت أعمالهم ترفع من قيمة المسيحية، وانتشارها في كل مكان (جقمان 1984: 91).

مشكلة الدراسة

بحسب علمنا، فإن هذا الدير لم يأخذ حقه بالبحث، في مجال أدواره الدينية والسياسية، والثقافية، والمعرفية في بيت المقدس، سواء على مستوى الدراسات، أو الكتب المؤلفة عنه.

² د. ، جامعة القدس، فلسطين، aziz.alassa@yahoo.com

أهداف الدراسة، وأهميتها

تسعى هذه الدراسة إلى التعرف إلى القديس سابا؛ من ولادته حتى وفاته، وإلى دَيْرِ مار سابا من حيث: التأسيس والتطور، والتعرف إلى الاختصاصات المختلفة لِدَيْرِ مار سابا عَنِ التاريخ، والتعرف إلى انعكاس الأحداث التاريخية على دَيْرِ مار سابا. تمتاز هذه الدراسة، وفق تقديرنا واجتهادنا، بأنها تجمع بياناتٍ وبياناتٍ عن سابا ودَيْرِهِ الذي جعل صحراء القدس؛ جنوباً وشرقاً، عامرةً بالكنائس، وصوامع الرهبان، والنساك.

منهجية الدراسة

قام الباحثُ بزيارة الدير المُحدّد في هذه الدراسة، كما قام بدراسة وصفية؛ ركزت على كتب الرحالة الغربيين، وغيرها من المصادر ذات الصلة، للتعرف إلى تأسيسه والظروف المحيطة به، عبر الزمن.

القديس سابا- المولد والنشأة:

وُلد القديس سابا (يُلفظ "Sava") -عام 439م- في قرية موتالاسكي في كبادوكيا لأبوين متدينين وثريين: جون وصوفيا. وهناك من يقول: بأنه وُلد في مدينة فيسارية في كبادوكيا. كان والده ضابطاً، واضطر إلى المغادرة إلى الإسكندرية مع زوجته صوفيا، وبالتالي عهد بتربية "سابا"، البالغ من العمر خمس سنوات، إلى إرمياس، صهره، من جانب زوجته. وبعد بضع سنوات غادر سابا إلى دَيْرِ فالافياي (Phlavianae) بالقرب من مسقط رأسه. هناك، كرّس نفسه لتعلّم سفر المزامير والواجبات الرهبانية الأخرى، وممارسة الفضائل الإلهية. وقد تميّز بتواضعه وطاعته، حيث تجاوز أتباعه من الرهبان الستين أو السبعين (عوض 1992: 63 الهامش؛ St. Sabbas Orthodox Monastery n.d.).

طلب سابا الانتقال إلى القدس، فوصلها وهو بعمر (18) عاماً، وقد تمّ استقباله في دَيْرِ القديس (St. Passarion)، حيث قضى شتاء 456-457م، ثم غادر القدس إلى صحرائها للالتحاق بالقديس إفيميوس أو يوثيميوس الكبير (عوض 1992: 63 الهامش؛ نشرة من دَيْرِ مار سابا بلا تاريخ؛ St. Sabbas Orthodox Monastery n.d.). وهنا، لا بدّ من التعرف إلى "يوثيميوس"؛ فهو مولود في أرمينيا سنة 377م، حيث رُسم كاهناً، وأصبح مُشرقاً على بعض التجمّعات الرهبانية، وحين بلغ الثلاثين من عمره هاجر إلى فلسطين، حيث عاش وحيداً في أماكن عديدة أغلبها في مغارات، بين القدس وأريحا، وتجمّع حوله عددٌ من الأتباع، حيث عمّل على إرشادهم، وتوفي في 473/01/20م (الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بلا تاريخ).

تنبأ يوثيميوس بأن سابا سيكون مميّزاً في الحياة الرهبانية، فأرسله إلى دير الأنبا ثيوكتيستوس. فرفع سابا وتيرة تعبده؛ بالصيام والتواضع والطاعة، مضيقاً حباً كبيراً واهتماماً في خدمة الكنيسة والعناية بزملائه الرهبان، كما أظهر سلوكاً مستقيماً. فأمضى (10) سنوات مع ثيوكتيستوس حتى وفاته، وأكمل سنتين أخريين مع خليفته، الذي توفي أيضاً. وعندما أصبح بعمر (30) عاماً طلب من رئيس الدَيْرِ الجديد السماح له بالاستقلالية في حياة عزلة هادئة، بدءاً من سنة (469م)، فعاش خمس سنوات في كهف جنوب الدَيْرِ، يُصلي ويعمل، ويعود أيام السبت والأحد إلى الدير لممارسته حرفته اليدوية والمشاركة في الصلاة المشتركة (St. Sabbas Orthodox Monastery n.d.).

الكهف الذي كان يتعبد فيه القديس سابا (بعدسة الباحث في حزيران 2021)

دَيْرُ مار سابا- النِّشَاءُ والتَّأْسِيسُ:

بدأ حوالي سبعين من النُّسَّاك يتجمَّعون حول سابا، وقاموا بتشكيل أوَّل جماعة أَخَوِيَّة رهبانيَّة. وفي عام 483م وجد القديس سابا في المكان المقابل على الطَّرَفِ (الغربي) من الوادي كهفًا جعله مركزًا لورا له، وفي ذلك الوقت أصبحت جماعته (150) راهبًا (St. Sabbas Orthodox Monastery n.d.). والورا (Laura) دير صغير يعيش فيه الرُّهبانُ في خلايا مُنفصلة (صوامع) تحت ظروف محدَّدة بصرامة، وتخضع هذه الخلايا لمراقبة رئيس الدير وتوجيهه، ورغم حياة العزلة، فإنَّ الخلايا كانت تعيش في بُقعة مُسوَّرة، الواحدة قُرْب الأُخرى، يتجمَّعون حول مكان العبادة المُخصَّص للجماعة. وهناك مَنْ يَرى أنَّ كلمة اللورا غيرُ محدَّدة بصورة قاطعة (الراهب 2003: 40 الهامش رقم 1).

منذ سنة (483م) أُنشئت مجموعة من الكهوف، أو خلايا النُّسَّاك المُقيمين حول الدَّير المركزي. وبمرور الزمن تمَّ توسيع المكان؛ ليستوعب مئات الرُّهبان الذين سكنوا هناك، وتمَّ تشييد الأسوار لتوفير الحماية. ويَبْغُذ هذا الدَّيرُ المنسوب إلى القديس سابا عن القدس (18) كيلومترًا إلى الجنوب الشرقي، وكان يُطلق عليه "دير القديس سابا" الصَّغير، وقد عُرِف منذ عام 1106م بـ "دير مار سابا" (الراهب 2003: 40 الهامش رقم 2).

ورغم ما تعرَّض له القديس سابا من افتراء زُهْبَانِه له، إلَّا أنَّ البطريرك سلوستوس سابا كان قديسًا، فَرَسَمَه كاهنًا في 491/12/12م (St. Sabbas Orthodox Monastery n.d.)، فأصبح القديس سابا رئيسًا لجميع الأديرة والصوامع، والنُّسَّاك في منطقتيه، فاعتذر عن قبول المهمة لجسامة مسؤوليتها، ولكنَّ البطريرك لم يقبل اعتذار سابا، وقال له: عُدَّ هذا التَّكليف أمرًا مُقدَّسًا؛ فاضطرَّ أن يلتزم به؛ بحُكم الطَّاعة للرُّؤساء المطلوبية من كلِّ راهب (جقمان ج 1: 1984: 92). انضمَّ إلى القديس سابا عددٌ أكبر من الرُّهبان، معظمهم من الأرمن، جَذَبَتْهُمْ مِثَالِيَّتُهُ وحياته ونجاحه (St. Sabbas Orthodox Monastery n.d.). وفي عام 493م كان له زُعامة على الرُّهبان في فلسطين كافة، الذين عاشوا حياةً مشابهةً لحياته التَّقشُّفية (عوض 1992: 63 الهامش).

لقد لاقى القديس سابا في عهد رئاسته تلك، مشكلاتٍ كثيرةً من نُّسَّاكِهِ لِتباين عقولهم وأجناسهم. فترك الدَّير فترة إلى القدس، ثمَّ عاد إليهم، فثاروا عليه ثانية، فتركهم حتى يوم تدشين كنيسة القيامة بعد تجديدها، وقد حَمَلَهُ بطريرك القدس إلياس كُتِب توصية إلى النُّسَّاك الثَّائرين، فشاط غضبهم، ودمَّروا برج الدَّير، ونهبوا ما فيه، وغادره سِتُون راهبًا إلى تَقْوَع عام 503م، وَبَنَوْا لهم دَيْرًا هناك. ومع ذلك لم تهدأ اضطراباتهم؛ ما اضطرَّ الإمبراطور جوستينيان إلى طردهم، وإرجاع كلِّ منهم إلى بلده (جقمان 1984: 92).

في القرنين الخامس والسادس، وصل المسيحيون من جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية؛ ليعيشوا كزُهْبَانٍ في القدس وصحرائها. تَبَعَ القديس سابا، المولود في كابادوكيا، الآلاف الذين استقروا بالفعل في الأديرة في صحراء جنوب القدس؛ سَعْيًا وراء رغبته في العيش في عزلة مُحْكَمَةٍ، وأصبح مكان القديس سابا معروفًا باسم "لورا العظيمة"؛ مجموعة من الخلايا أو الكهوف، أو دير. وكان القديس سابا قد كُرس كنيسة في عام 502 على مدار فصل الربيع (Mack 2019: 53-54) & Balint).

كانت السَّنَوَاتُ العَشرون الأخيرة من حياة القديس سابا، زاخرةً بالأنشطة التي كانت مُهمَّة جدًا للتَّاريخ الكنسيِّ والعالميِّ. ذهب القديس سابا، الذي حثَّه بطريرك القدس الأرثوذكسيِّ إلياس (494-516)، إلى القُسطنطينية عام 512 لِمُقابلة الإمبراطور "أنسطاسيوس" (نشرة من دير مار سابا بلا تاريخ)، وهناك -من خلال سمعته وقداسته- تمكن من إقناع الإمبراطور بالغاء نَقْل إلياس. وفي العام التالي -عندما شرَّد الإمبراطور البطريرك الأرثوذكسي- جَمَعَ القديس سابا كلَّ زُهْبَانِ الصَّحراء في القدس؛ لِحماية إلياس، وقام بِلُغْنٍ مندوبي الإمبراطور المُهرطقين. لقد قام بتنظيم حركةٍ مماثلة للرُّهبان بعد ثلاث سنواتٍ في عام 516م، من أجل دعم بطريرك القدس الجديد يوحنا الثالث (516-524)، بمساعدة القديس ثيودوسيوس كوينوبيارك. ساعدت هذه الحركة كنيسة القدس على الاحتفاظ بإيمانها الأرثوذكسيِّ، في وقتٍ وَقَعَتْ فيه كنائسُ القُسطنطينية، والإسكندرية، وأنطاكية، في أيدي بطارقة من طائفة monophysite؛ أي الذين ينادون بالطَّبعية الإلهية الواحدة للمسيح (St. Sabbas Orthodox Monastery n.d.; الشوملي 2021).

عام 529م، ثار السَّامريُّون لإنشاء دولتهم المستقلة، ولمواجهة القيود المفروضة عليهم بسبب مراسيم الإمبراطور جستنيان (حكم 527-565م)؛ وهو الإمبراطور الرُّوماني الشرقي منذ 527/4/1م حتى وفاته في 565/11/14م (Open Library 2020). وبعد أعمال الشغب الهائلة، بحلول عام 531، أصبح التمرد تحت السيطرة؛ إذ نجحت قوات

الإمبراطور جستنيان الأول في قمع الثورة، بعد أن مات عشرات الآلاف من السامريين أو استُبعدوا (الموسوعة الحرة بلا تاريخ).

لما استقرت الأمور، بعد ثورة السامريين (529م-531م)، طلب بطرس بطريك القدس من مار سابا أن يذهب إلى القسطنطينية، ويطلب من الإمبراطور جستنيان أن يعفي سكان فلسطين من الضرائب لسوء حالهم، فلبى الإمبراطور طلبه، وزاد عليه مكرمة فوقها، فانتدب مندوباً خاصاً عنه، وزوّده بأموال طائلة، وطلب من نائبه في فلسطين أن يسلم مندوبه جميع عائدات الضرائب في فلسطين؛ حتى يتمكن من تنفيذ البناء الذي أمره به الإمبراطور، وزوّده بالمهندسين، والبنّائين، والعَمال المَهَرّة، وكل ما يلزمه (جقمان 1984: 48).

هكذا، نجح القديس سابا في سن التسعين من عمره، في تحرير فلسطين من الإجراءات التي قصد الإمبراطور جستنيان فرضها ردّاً على أعمال الشعب التي سببتها انتفاضة السامريين واليهود (529م). حتى إن القديس حثّ الملك الوريث، الذي استشعر قداسة سابا من خلال قدرته على القيام بالأعمال العامة في فلسطين، وطردها من فلسطين، ونسطوريوس وأوريجنوس، مقابل توسّع الإمبراطورية في إفريقيا وإيطاليا (St. Sabbas Orthodox Monastery n.d.).

كانت عودة القديس سابا من القسطنطينية بداية النهاية لحياته. فقد أسلم روحه إلى بارئها في 5 كانون الأول (ديسمبر) 532 بعد الميلاد. وبعد خمسة قرون، قام الصليبيون بإخراج رُفاته؛ بحثاً عن بقايا أعظم القديسين، ونقلوا الجثة إلى القسطنطينية، ومن ثم إلى البندقية في عام 1204. وفي عام 1965م زار البابا بولس السادس فلسطين، فأحضر الجثة معه من روما إلى دير (مار سابا) في جنوب شرق بيت المقدس (St. Sabbas Orthodox Monastery n.d.; Mack & Balint 2019: 53-54).

مار سابا دير مقدسي

بقي دير مار سابا قيد الاستخدام المستمر منذ القرن الخامس. وازدهر كمركز لاهوتي عظيم في صحراء القدس. عاش فيه ما يصل إلى خمسة آلاف راهب - يوناني وجورجي وأرميني وسرياني - في دير الجرف وحوله، بما في ذلك اللاهوتي العظيم يوحنا الدمشقي (الذي كان اسمه الحقيقي منصور بن سرجون، حيث كان والده وزير الخزانة لدى الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وكاتباً له)، والذي دُفنت بقاياه هناك (Mack & Balint 2019: 54). ويوصف الدمشقي بأنه "أكبر لاهوتي وفيلسوف، وكاتب تسابيح" (نشرة من دير مار سابا بلا تاريخ).

استمرّ الرهبان المقيمون في الدير على خطى القديس سابا، ملتزمين بطقوسهم الخاصة (المعروفة باسم طقوس القديس سابا)، والتي أثرت، في وقت ما، في أجزاء كبيرة من العالم المسيحي، ومنها عدم قبول أيّة امرأة داخل فناء الدير. وعند الاقتراب من هذا الدير يُرى برج أقيم لإيواء الزائرات؛ حيث لا يُسمح لهنّ بدخول الدير، لذلك دُعي بـ "برج النساء"، وقد شُيّد هذا الدير عام 1612م (جقمان 1984: 93). كما أنّ رهبان الدير نباتيون ملتزمون. وفي أيام الأسبوع، يُصلّون لمدة ست ساعات، أو سبع في اليوم... وغير ذلك من الطقوس (Mack & Balint 2019: 53).

وهناك قائمة بالقديسين الساباويين -نسبة إلى سابا- وهم الذين حمّوا رهبان صحراء جنوب شرق القدس من الهزّة. وخلال الغزو الصليبي، وما بعده، بقي دير مار سابا ممثلاً للكنيسة الأرثوذكسية وحامياً على مختلف المستويات الدينية، بكونه أهمّ دير في الصحراء، التي تُوجب على كلّ رهبان البطريركية الأرثوذكسية أن يعيشوا فيه؛ وذلك لكي يتعلّموا الحياة الرهبانية، ويحفظوا واجباتهم الروحية. ومن مظاهر قسوة الحياة في هذا الدير (نشرة من دير مار سابا بلا تاريخ):

- الكهّباء ممنوعة، إلّا في الحالات القصوى؛ عبث مؤلّداً؛ لإنجاز الأعمال الإنشائية.
- خلال الصيام الأربعينيّ يكون الطّعام نواشف.
- لما كان القديس سابا قد حُورب بأن يأكل تفاحة، قطع على نفسه ألا يأكل تفاحة طيلة حياته.

ويظهر من الصّورتين أدناه موقع دير مار سابا المتكوّن من مُجمّع معماري ضخم، محاط بسور عالٍ، يقع على الجانب الغربي لواد النّار (من أسمائه الأخرى: يهو شافط وقيدرون)، يتألّف من نحو (360) غرفة. وفي الصورة الثانية يظهر برج النساء المذكور أعلاه، على مقربة من المجمع.

منظر لدير مار سابا يظهر في وادي النار وبناء الدير المتراكم عبر السنين فوق شق صخري

<https://www.pinterest.com/pin/415738609325615820/> (seen at: 16/09/2021)

يُحيطُ الدَّيْرُ سورٌ عالٍ، وعلى مَدْخله برجٌ يُدعى بِاسْمِ الملكة أفذوكسيا التي أمرت ببنائه، عندما جاءت تُجَادِلُ القُدِّيس أفثيميوس في ديانتَه المسيحيَّة عام 555م، فافتنعت منه، واعتنقتُ هي المسيحيَّة بعدَ هذا اللقاء (جقمان 1984: 93). هكذا، يكون قد أنجز "دير القديس سابا"، بكونه مِنَ الأديرةِ التابعة للروم الأرثوذكس، والذي يقع شرقيَّ مدينة بيت لحم (يبعد 17 كيلومترًا عن كنيسة المهد)، وفي الجنوب الشرقي من بيت المقدس (نشرة من دير مار سابا بلا تاريخ). وكان دَيْرُ مار سابا بمثابة مركز الرهبنة العربيَّة المزهرة التي ازدهرت بين الفتح الإسلامي للقدس، والحروب الصليبيَّة (Mack & Balint 2019: 55).

دَيْرُ مار سابا من وَجْهَةِ نَظَرِ الصَّليبيِّين والرحالة

تُشيرُ المصادرُ المختلفةُ إلى أنَّ دَيْرَ مار سابا حَظِيَ بمكانةٍ عاليةٍ عند الصَّليبيِّين، علماً بأنَّه يقوم على العقيدة الأرثوذكسية التي تُناهضُ العقيدة اللاتينيَّة للصَّليبيِّين. إذ يتَّضحُ من الخريطة الصَّليبيَّة المُبيَّنة أدناه، موقعُ دَيْرِ مار سابا، وموقعُ دَيْرِ ثيودوسيوس، الأرثوذكسيِّ أيضًا، والذي يقع على بُعْدِ سبعة كيلومتراتٍ إلى الغرب من مار سابا. كما ورد ذِكرُ هذا الدَّيْرِ في كتاب الرِّحالة دانيال الرَّاهب الذي تَتَبَعَ القدس وما فيها من أحداثٍ، خلال رحلته لِفِلَسْطِينِ في أوائل الاحتلال الصَّليبيِّ.

خريطة صليبية يظهر عليها موقعي ديري ثيودوسيوس (دير بن عبيد) ومار سابا (Hutteroth & Abdulfattah 1977)

في الفترة الصليبية كان مَنْ يَشْغُلُ مَنْصِبَ رَئِيسِ دَيْرِ مار سابا يَتَمَتَّعُ بمكانة كبيرة لدى الأوساط الدنيّة في مملكة بيت المقدس الدنيّة؛ إذ كان يُعَدُّ كبيراً، وعَدَهُ بعضهم أهمّ مَنْ بَقِيَ في فلسطين من عناصر رجال الدين الأرثوذكس، وقد حَرَصَ الملوك الصليبيون على تقديم الأراضي للدّير المذكور، وتدعيم مكانته، ودَوْرِهِ في الأرض المقدّسة. ونظراً لمكانة رئيس دَيْرِ مار سابا، فقد اتّجه إليه الحجاج الرُّوس من أجل معاونتهم، لا سيّما قُدْرَةَ رئيس الدَيْرِ على الاتّصال بالقيادات السّياسيّة الصّليبيّة، على نحوٍ يَدُلُّ الصُّعوبات التي كانت تواجه الحجاج على ما يبدو (عوض 1992: 150).

من أشهر الرّحالة الذين زاروا دَيْرَ مار سابا الأب دانيال الرّاهب عام 1106م؛ إذ مكث فيه مدّة (16) شهراً (جقمان 1984: 94)، ويؤكّد دانيال أنّه وَجَدَ لدى لورا سابا أحد الرّجال الأتقياء الوَرعين الطّاعنين في السّنّ، وقد اتّخذهُ مُرشداً ودليلاً؛ من أجل معاونته في رحلته في البقاع المقدسة، ومن هناك تمكّن من زيارة جميع المناطق التي تاقّت نفسه إلى زيارتها (عوض 1992: 77-78).

في رحلته إلى القدس خَصَصَ الرّحالة الرّاهب دانيال فصلاً بعنوان "بيت المقدس ودير مار سابا"؛ أي أنّه عَدَّهُما وَحَدَةً واحدةً. كما كان يَصْحَبُ دانيال في رحلته راهباً ينتمي إلى دَيْرِ مار سابا. وكنايّة عن قُرْبِ هذا الدَيْرِ من القدس وارتباطه بها، يقول الرّحالة دانيال: "التّكّيّة (نُزُلُ الحجاج الفقراء) التابع لدَيْرِ القُدّيس سابا على بُعْدِ رَمِيّةٍ حَجَرٍ من برج داود". وقد ذكر هذا الرّحالة سبعةً وتسعين موضعاً قد زارها جميعاً، ووصفها وصفاً واقعياً من وَجْهَةٍ نظره، وكان أوّلها بيت المقدس، ودَيْرُ القُدّيس سابا. وقد شَمَلَتْ هذه المواقع، من حيث الرّقعة الجغرافيّة فلسطين، والأردن، ولبنان، وبعض جُزُرِ البحر المتوسّط، ولكنّها لم تتجاوز الأماكن التي كان، للسّيد المسيح، عليه السلام، أو لأُمّه مَرْيَم العذراء، أو لحواريه، نصيبٌ وافرٌ منها. وقد حظيت بيت المقدس أيضاً، بنصيب وافرٍ من الرّحلة (الرّاهب 2003: 7، 17-18، 23، 31، 34، 40، 54). وكما ذكرنا أعلاه، لا يدخل إلى (دَيْرِ القُدّيس سابا) إلّا بإذن البَطْرِيّك الأورشليميّ (علي 2015: 6، 36).

ويذكر دانيال الزاهب أنه في الفترة (1106-1107م) كان في القدس «بَيْتُ حُجَّاجٍ» القديس سابا، قُزِبَ برج داود، والذي كان يَحْتَلُّه في ذلك الوقت الكهنة اليونانيون الذين قُروا من مَجَزَّةِ بَذِيرِ القديس سابا، والمعروف الآن باسم مار سابا. كما يذكر هذا الرَّحَالَةُ أنه في طقوس هبوط النُّورِ المُقَدَّسِ على القبر المُقَدَّسِ: "يوجدُ مِصْبَاحُ اليونانيِّين عندَ موضِعِ الرَّأسِ، بينما توجدُ مِصَابِيحُ دَيْرِ القديسِ سابا، وجميع الأديرة الأخرى، عندَ موضِعِ الصُّدْرِ، حيثُ إنه من عادة اليونانيِّين، ودَيْرِ القديسِ سابا، أن يَضَعُوا مِصَابِيحَهُمْ هناك كُلَّ عامٍ" (الزاهب 2003: 34، 108-109).

وفي ملحوظاته حول هبوط النُّورِ المُقَدَّسِ، يقولُ الزاهبُ دانيال: بأنَّه عند دخول الكنيسة بِصُحْبَةِ المَلِكِ الصِّلبيِّ في حينه "بلدوين الأول" -حَكَمَ بين 1100-1118م- ذهبوا إلى الباب الشَّرقيِّ لِلصَّريحِ المُقَدَّسِ، ثُمَّ تقدَّم إلى المكان المُعدَّ له قُزِبَ دريزين المَذْبَحِ، أمام الباب الشَّرقيِّ المُقَدَّسِ، ثُمَّ طلبَ راهبُ دَيْرِ القديسِ سابا وكَهَنَتُهُ، وقساوسُهُ الأرثوذكسي، أن يَحْتَلُّوا مكانًا فوق الصَّريحِ. (الزاهب 2003: 122-123).

ويصف الرَّحَالَةُ يوحنا فوزربورغ -المواطن الألماني الذي زارَ القدسَ في القرن الثاني عَشَرَ- إحدى مشاهداته في القدس بالقول: "وفي الشَّارع الذي يُؤدِّي إلى أدنى التَّلِّ، على الجانب الأيمن من برج داود يقعُ دَيْرُ الرُّهبانِ الأرمن الذي شُيِّدَ على شَرَفِ القديسِ سابا؛ رئيس الدَّيْرِ المُبَجَّلِ العظيم" (فوزربورغ 1997: 79).

ومن الأمثلة على أهمية هذا الدير وقديسيته لدى الحُجَّاجِ القادمين من الخارج، وعندما القديسة إيو فروزين التي جاءت إلى الأراضي المُقَدَّسة، خلال الفترة (1162-1172)، وعندما أصبحت على فراش الموت، أرسلت إلى دَيْرِ القديسِ سابا أن تُدْفَنَ في هذا الدَّيْرِ، لِتَرْجُو الأرشيمندريت والأخوية أن يَمُنَّحُوهَا مكانًا تُدْفَنُ فيه في دَيْرِهِمْ، فأجابوها بِالرَّفُضِ؛ لأنَّ القديسَ سابا أَمَرَ بِأَلَّا تُدْفَنَ امرأةٌ في دَيْرِهِ، وأشاروا إلى دَيْرِ القديسة العذراء في ثيودوس، حيث دُفِنَتْ عِدَّةٌ قَدِّيسَاتٍ، مثل: أُمِّ القديسِ سابا، وأُمِّ القديسِ ثيودوس. وعندما عَلِمَتْ بِذلك، شَكَرَتِ الرَّبَّ، وبعثت برسالةٍ لِديْرِ القديسِ ثيودوسيوس -يقع غربيَّ مار سابا على بعد سبعة كيلومترات، وعلى ارتفاع (599م) عن سطح البحر- فَأَعَدَّ الرُّهبانُ مكانًا لِقَبْرِهَا، ودُفِنَتْ فيه بعد 24 يومًا (عوض 1992: 267).

مجموعة من الرهبان في دير مار سابا القدس عام 1870م. نقلًا عن:

<https://ajdadalarab.wordpress.com/2013/12/22/>

مكتبة دير مار سابا:

كان دير مار سابا يضم مكتبة تحتوي على عدد كبير من المؤلفات الخَطَّية المُهمَّة. لكن البطريرك "كيرلس" (1845-1873) أَمَرَ بِنَقْلِهَا إلى دَيْرِ المِصْلَبَةِ؛ لأجل استعمالها وحفظها في المدرسة اللاهوتية التي أسَّسها هناك، جنوب غرب القدس؛ خوفًا على مُحتوياتها من النَّهْبِ، أو الدَّمَارِ، ومن هناك نقلت إلى دير الرُّوم الأرثوذكس في القدس (جقمان 1984: 93؛ المنبر 1947: 442).

ومما يؤكّد على أهميّة دَيْرِ مار سابا في التّوثيق، أنّه كان فيه، أوّل تَرْجُمَاتِ النُّصوصِ المسيحيّةِ إلى العربيّةِ (55: 2019 Mack and Balint). كما أنّ الرّخالةَ الرّاهبَ دانيالَ خَتَمَ رحلته إلى بيت المقدس بالدُّعاء لجميع الأمراء والأميرات الروس، وأولادهم، والأساقفة، والرهبان، والنُّبلاء، وجميع المسيحيين، وأدْرَجَ أسماءهم في دَيْرِ القديس سابا (الراهب 2003: 18). ومما تقوله سيريدون في ورقتها المنشورة سنة 1938م (Spyridon 1938):

عندما وجدت مجموعة مخطوطات مار سابا لأوّل مرّة، كنت مُبتهجة للغاية، ولكن في الوقت نفسه كنت مكتئبة. لقد ابتهجتُ بقراءة حكاية فلسطين العائليّة الموجودة في هذه المخطوطات اليونانيّة. ولكن بعد ذلك، وفي حين أنّ هذه المخطوطات قد تكون في متناول كثيرين في البطريركيّة اليونانيّة في القدس، فإنّ صعوبة اللّغة تُمثّل عَقَبَةً دائمة في فهم محتوياتها. فالمخطوطات مكتوبة باللّغة اليونانيّة، والتي رَعَمَ كونها رسميّة في فلسطين، إلّا أنّها أصبحت الآن لغةً مَيتَةً لمُعظم سُكّانِ هذا البلد. ومن هنا تأتي ضرورة ترجمة المخطوطات إلى وسيط معروف أكثر. علماً أنّ هناك مخزوناً هائلاً من المعلومات مُختجراً في المخطوطات اليونانيّة لأديرة مار سابا، وجبل سينا، وجبل آثوس والفنار، وينتظر اجتهداً أحد العلماء والباحثين للعمل عليها.

وفي كتابهما "القدس: مدينة الكتاب" المنشور سنة 2019م، أوردَ المؤلفان ميراف ماك وبنيامين بالينت (Mack and Balint, 2019: 54-55) المعلومات القيّمة الآتية:

- بعد جيلٍ من القديس سابا، استقرّ الكاتبُ الغزيُّ سيريل من Scythopolis في لورا، حيث أَلَفَ الرّواية الرّسميّة لحياة القديس. وتبعه كُتّاب آخرون، واستمرّت مكتبة مار سابا في التوسّع في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، حتّى أصبحت أهمّ مكتبة رهبانيّة في صحراء القدس. اليوم، تبقى مجموعة مار سابا سليمة في مكتبة المخطوطات الخاصّة بالبطريركيّة الأرثوذكسيّة اليونانيّة في القدس.

- منذ القرن الثامن وما بعده، كُتِبَ السّبائون -نسبةً إلى سابا- كُتِبَ الكنيسة المترجمة إلى العربيّة، وقاموا بتأليف أعمالٍ أصليّة بلغة القرآن (العربيّة). لتوضيح مدى تفوّق العربيّة تماماً على اليونانيّة. وكان اللاهوتيّ ثيودور أبو قرة (حوالي 750-825) أحد الرهبان في مار سابا يكتب باللّغة العربيّة، ويوظّف المفردات الإسلاميّة للتعبير عن اللاهوت المسيحي. كما رَعَمَ أبو قرة أنه كُتِبَ ثلاثين عملاً في وطنه السرياني، لم يبق أيٌّ منها (i).

خاتمة:

نستنتج ممّا سَبَقَ أنّنا أمّامَ عِلْمٍ ومُعَلِّمٍ حَفَرَا في التّاريخ؛ فالعلّم هو القديس سابا (439م-532م)، القادم من بلاد الأناضول؛ ليؤسّس للفضيلة ونشرها في بيت المقدس، وأكناف بيت المقدس. وهذا ما كان له بالفعل، فقد ترعرع على تّرى جنوب شرق بيت المقدس، فكان أنموذجاً في اكتساب التّعليمات وإكسابها غيره؛ إذ تسلّم ممّن سَبَقَهُ من تعاليم القديسين، مثل "أفثيموس وثيوكتوسوس" ونقلها لمن بعده من القديسين، مثل "أستفانوس العجائي" الذي عادةً ما كان يذهب خلال فترة الصّوم الأربعينيّ إلى الصحراء؛ للتعبّد ما بين اللافرا (يقصد دير مار سابا) والبحر الميت بقليل من الخبز والماء.

كما كان في أنشطته الإيمانيّة والتّعبويّة تلك برّقة قديسٍ آخر، يُعدّ من مجايله أيضاً، وهو القديس ثيودوسوس (424م-529م)، الذي أنشأ أيضاً، ديراً باسمه في محيط دَيْرِ مار سابا (نحو 7 كيلومترات إلى الغرب منه). ويستنتج المراقب أنّ هذين الدّيرين يتكاملان في عديد من القضايا؛ ففي حين يُمتنع على النّساء الدّخول إلى دَيْرِ مار سابا، أو أن يُدقنّ فيه، يُسمح بذلك في دير ثيودوسوس.

هكذا، أصبح القديس سابا "أهم آباء البرية". ولم يبق أثره في البرية، وإنّما كان له وللدير من بعده -بالغ الأثر والتّأثير في بيت المقدس على المُستويّين الدّيّنيّ والسّياسيّ. وهناك كثيرٌ من الدلائل على هذا الدّور، منها ما جاءت عليه هذه الورقة، ومنها ما لم نتمكن من الوصول إليه:

- على المستوى الدّيّنيّ والإداريّ: يُمكنُ استنباطُ هذا الدّور من خلال جِزْص الحُجاج المسيحيين والرّخالة القادمين إلى بيت المقدس، على التوجّه إلى دَيْرِ مار سابا، والإقامة فيه، والمروء على تاريخه، بمؤسّسه وتنبّع سير القديس سابا ومسيرته، والتمثّل به، والافتداء بقيّمه ومثله العليا، وجِزْص أولئك العبّاد المنقطعين إلى العبادة، على الإقامة فيه. كما أنّ

هذا الدَّيرُ مرتبطٌ بالقدس ارتباطًا وثيقًا عبر التاريخ؛ ففي حين أنَّ القديسَ سابا نفسه كان يتحكَّم في تفاصيل البطريركية في القدس إلى حدِّ التَّدخُّل في تعيين البطريرك نفسه، أو الاعتراض على نقل بطريرك، كما حصلَ مَعَ يوحنا الثالث، وفي حين استمرار مهابة رئيس الدَّير وهيبته على حُجَّاج الأراضي المقدَّسة، وأنَّه "لا يُدخَلُ إليه إلا بإذن البطريرك"، لا سيَّما القديسون منهم - كما هو حال القديسة إيو فروزين التي كانت ترجو أن تُدقَّن في هذا الدَّير، والقديس يوحنا الدمشقي، نجد أنَّ البطريركية الأرثوذكسية في القدس، هي التي تُدير أعمال الدَّير، وتوفِّر للرهبان الذين يعيشون فيه، عيشة تَقشُّفٍ منقطعين إلى الصَّلاة والصَّوم، سُبُل العيش الكريم.

- على المستوى السياسي والأمني: لقد اتَّضح من هذه الورقة أنَّ هناك دَوْرًا سياسيًا وأمنيًا مهمًّا قام به القديس سابا في آخر عشرين سنة من حياته؛ فقد كان رسول البطريركية الأرثوذكسية لدى الحُكَّام الرُّومان، كما أنَّه كان رسول فلسطين كُلِّها عندما توسَّط لدى الإمبراطور جستنيان لصالح الفلستينيين بتخليصهم من بعض الضَّرائب، ما كان له بالغ الأثر في استقرار البلاد لصالح الإمبراطورية الرُّومانية.

- على مستوى التراث الفكري والمعرفي: فَبَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ أنَّ هناك مكتبة في هذا الدَّير تكتبُ بالمخطوطات والكُتُب، والمعارف. وهي مكتبة يُقَلُّ نظيرها؛ لما تحتويه من تراثٍ فكريٍّ ومعرفيٍّ، يخدمُ عملية التوثيق لهذا المكان المقدَّس، عبر التاريخ.

المصادر والمراجع

الموسوعة الحرة. بلا تاريخ.

(accessed 10 01, 2021) /الثورات_السامرية https://ar.wikipedia.org/wiki/الثورات_السامرية

جورج داود. "الأوقاف المسيحية في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين.. مؤتمر بيت المقدس الإسلامي الدولي الرابع: الأوقاف الإسلامية والمسيحية في القدس تحت الاحتلال الإسرائيلي. الجزء الأول. " تحرير محمود سعيد أشقر، وخالد علي زواوي. رام الله: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، 2013. 281-302.

حنا جقمان. جولة في تاريخ بيت لحم. ج1. القدس: مطبعة بطريركية الروم، 1984.
دانيال الراهب. رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الاراضي المقدسة 1106-1107م. ترجمة سعيد البيشاوي، وداود إسماعيل أبو هدة. رام الله. فلسطين: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2003.
سليمان الموسى. صحيفة الغد الأردنية. 25 تموز (يوليو) 2011.

(accessed 8 14, 2021) /الموسى-يعرض-كتابات-الرحالين-الغربيين <https://alghad.com/>

سير القديسين والشهداء في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. بلا تاريخ.

(accessed 9 26, 2021) https://st-takla.org/Saints/Coptic-Orthodox-Saints-Biography/Coptic-Saints-Story_1978.html

فادي شامية. "الممتلكات والأوقاف المسيحية في القدس". دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس. تحرير محسن محمد صالح. بيروت. لبنان: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات والحملة الأهلية لاحتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية 2009. 2010. 247-268.

لافرا دير القديس سابا المتقدس. نشرة، دير مار سابا، بلا تاريخ(ii).

مجلة المنبر. "دير مار سابا". المنبر، 1947، الإصدار المجلد الأول، العدد (10): 442.

مجير الدين الحنبلي. الأئس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ج2. عمان-الأردن: مكتبة المحتسب، 1973.

محمد أحمد عوض. الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1187). القاهرة: مكتبة مدبولي، 1992.

محمد كرد علي. خطط الشام. ج6. دمشق: مكتبة النوري، 2015.

(accessed 6 30, 2021) pdf-كتاب-خطط-الشام <https://www.noor-book.com/>

د. وليد الشوملي. مقابلة حول الطوائف المسيحية في 2021/07/15.

يوحنا فوزريورغ. وصف الأراضي المقدسة في فلسطين للرحالة الألماني يوحنا فوزريورغ. ترجمة وتعليق: د. سعيد البيشاوي. عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 1997.

المراجع الأجنبية:

- Mack, M. and B. Balint. Jerusalem: City of the Book ..Jerusalem :Yale University Press. New Haven & London, 2019.
- Open Library .Justinian I, the Great, Emperor of Byzantine تحرير Clean Up Bot.
<https://openlibrary.org/authors/OL3765308A> (accessed 6 13, 2021)
- S. N. Spyridon". Annals of Palestine, 1821-1841: Manuscript of Monk Neophytes of Cyprus ".Journal of the Palestine oriental society ,Jerusalem. pp: 63-110 , 1938.
- St. Sabbas Orthodox Monastery. n.d.
<https://www.stsabbas.org/saintsabbas> (accessed 6 14, 2021).
- Wolf-Dieter Hutteroth and Kamal Abdulfattah. Historical Geography of Palestine, Trans Jordan and Souther Syrial. In the Late 16th Century .Erlange, 1977.

الهوامش:

- ⁱ يذكر المؤلفان أن المخطوطات التي رآها هي الأصل العربي (أربعة عشر عملاً) وباللغة اليونانية (ثلاثة وأربعون عملاً، على الرغم من أن غريفيث يؤكد أن هذه ترجمات من العربية).
- ⁱⁱ استلمها الباحث من الدير عند زيارته في 2021/06/26، برفقة رئيسي بلدية العبيدية –البلدة التي يوجد الدير ضمن حدودها- السيدين: علي حساسنة وسليمان عبد الله العصا.